الحقيقي، وأنها تُحتَبس في الجسم عقاباً وتكفيراً. وإن النفس تفترق عن الجسم بأنهما جوهر مناقض للطبيعة، وإنها ليست من الطبيعة في شيء. وهي في حال مفارقتها البدن لا يكون لها به من علاقة عضوية، بل تظل بريئة من التلوّث به، محتفظة بمقوّماتها على أنها لا تؤلف شخصية الانسان، ذلك بأن أي روح قد تلابس أي بدن. أما بعد الموت فانها ترتد الى «حادس» Hades؛ ومن ثمت تعود مرة إلى أخرى، أي بعد دورة، باحثة عن جسد جديد فيكون لها مقرًّا حتى حين. فهي بذلك تُطهَّر حالاً بعد حال، وحيناً في بدن انسان حيناً، وحيناً في بدن حيوان. أما مصيرها النهائي بعد «التجسُّد» فرهون بأعمالها التي تأتيها في خلال حلولها في الأبدان المختلفة، أي في أطوار التجسُّدية السابقة. ولكنها مع ذلك خالدة لا تموت وأنها في جوهرها فرد لا يتجزأ. والغاية النهائية من ذلك كله هو ان تتحرَّر من أواصر حياة الاجسام بصورة عامة، وتعود من حيث أتت، فتبقى أبداً في الملكوت السَّموفيطيي حيث النفوس النقية الطاهرة. ولذلك قصد فيثاغورس من فلسفته أن يسارع بعودة النفس الى مقرها التحرُّر، بالتعرف على الزهد والتنسُّك وفرائض التطهير.

ومن هنا نرى، أن روّاد الفكر منذ البدايات الفلسفية الأولى قد انقسموا فريقين: القائلين بالأحديَّة الطبيعية matrialistic monism، والقائلين بالازدواجية Pluralism.

* * *

نعقب على فيثاغورس بفيلسوف آخر طار صيته وشمل ذكره، هو الفيلسوف «إمبيذقليس» (٤٤٤ ق. م).

أنزل إمبيذقليس النفس الانسانية منزلة أقرب ما تكون الى المنزلة التي خصَّها بها الفلسفة الفيثاغوريَّة. وكان الفرق بين فلسفته وفلسفة فيثاغورس أنه حاول أن يُطلِع بالتوفيق بين مذهبين متناقضين، مذهب روحاني حبيه بمذهب فيثاغورس، ومذهب مادي أدبه بمذهب الايونيين. قال بأن النفس من جوهر قدسيّ، وإنها أنبل من أن تألف هذا العالم، وإنها عند ما تنفك منه، تحصل على الحياة الحقيقية الكاملة. لذا فهي تبقى الى عالم «التجسُّد»، باشرت فيه حياة عزلة وانفراد. وليس من شأنها الادراك العاديّ أو الشعور،

والعقل والفكر ، فان هذه الاشياء هي من وظائف الدم الحار في القلب ، وان غايتها تتصل بأساليب التفكير الرفيع ، والتسامي الى الزهد هي تتصل بالبصيرة intuition الباطنية التي تخترق الحجب الى ما وراء الظواهر البادية في تجاريب الحس ، وان معرفتها تتصل بكيانات الوجود وفقاً لفطرتها الحقيقية .

وفي الوقت الذي أفرغ فيه إمبيذ قليس الفلسفة الروحانية في صورة جديدة ، عمل انكساغوراس وديمقريطس على احياء الفكرة الايونية ، فتقدم ديمقريطس بذلك خطوات لم يصل إليها الذين تقدموه من فلاسفة اليونان .

يقف انكساغوراس مرقماً وسطاً بين الروحانيين والماديين . وعنده أن العقل هي القدرة العامة التي تحرك وتهدي جميع الاشياء ، وانك حيثما تلمست وجود الحياة أو الحركة ، ألفيت هذه القدرة العامة عاملة نشيطة . وعند الموت تتدثر هذه النفس الفردية ولا يبقى إلا تلك القدرة العقلية . ورغم هذا ظل التفريق بين المادة والروح غير جلي المعالم واضح الحدود حتى لقد قال الأستاذ « لويس » أن تلك الطاقة العقلية : لم تكن غير الصورة المجردة للمبدأ الحيوي الذي يبعث الحياة في الحيوان والنبات ، وانه لم يكن غير واحد من جملة العوامل المادية ، وإنه لا يفترق عنها إلا بالصفاء » . وقال جروت : « إنه لم يكن غير جوهر أو صورة مادية ، تتفوق على غيرها بأنها أرق منها ، بل هي أرق من النار أو نظيراته » .

أما ديمقريطس (٤٦٠ ق . م) فقد صب التأملات الايونية في قالبها المادي الحديث ، بأن رد جميع الاشياء الى جواهر مادية هي الجواهر الفردة ، كما رد الظواهر الى حركة هذه الجواهر والجواهر الفردة عنده وحدة لا تتجزأ دائمة الحركة ، وان الجواهر الفردة تتجمع بعضها مع بعض والحركة تلازمها ، بل هي تتقبل الحركة وتبعثها ، وان الروح : ذلك العنصر الذي يبعث الحياة في الكائنات الحية ، إنما يتألف من جواهر ، خصائصها المميزة لها أنها أرق من غيرها وألطف وأدق وأكثر استدارة ، وبذلك تكون أسرع حركة من غيرها . وهذه الجواهر التي هي ألطف وأرق الجواهر ، تتسلط على الجسد ، فتبعث فيه ظاهرة الحياة . وقال بأن هذه الجواهر الروحانية تجتذب مع التنفس ، فاذا لم تؤخذ مع النفس حدث الموت .

إذن فقد كان ديمقريطس رأس الماديين حتى لقد قال العلامة « رود » — Rhode — أنه أعظم مفكري الأغارقة، لأنه أنكر أن الشخصية الفردية قد تبقى بأية حال بعد موت البدن .

ولقد نرى من ذلك أن ما أدرك ديمقريطس من معنى النفس مخالف تماماً عن ما أدرك « البدائيون » من الروح الشبح . ومع ذلك فإن الفكرة البدائية كانت معروفة على ما يظهر لتلك الفيلسوف ، وانه حورها وألبسها ثوباً جديداً . في أول الأمر وضع ديمقريطس نظريته في الإدراك فقال بأننا عندما نرى الجوامد ، فإنما نراها لأنها تلقي صوراً طبق الأصل تدخل العين وتمر من خلالها الى النفس . وفي هذا قال الأستاذ « تيلور » ان في هذا القول ما يحملنا على الاعتقاد بأن هذه « الظلال » التي تلقي بها الجوامد ، ما هي إلا « الأرواح الشبحية » التي شاعت في العقائد السائدة من قبل ، كُسِيَت ثوباً فلسفياً جديداً .

كان بروتاغوراس تلميذاً لديمقريطس ، طوّر في مذهبه وخرج بمذهب جديد هو مذهب « الاحساسية » القائل بأن الفكر والحس شيء واحد ، فأقام لأول مرة مذهب « الذرية العقلية » ، أي المذهب القائل بأن العقل مكوّن من الذرات أو الجواهر الفردة ، وهو مذهب من الطبيعي أن يكون بديلاً من مذهب « المادية الميتافيزيقية » .

نرى بذلك أن الفلسفة قبل سقراط قد تركزت في مذهب مادي صرف . على أن مذهب الفلاسفة الايونيين لم يكن مذهباً ماديًّا من جميع نواحيه ذلك بأن التفرقة بين المادة والروح لم تكن قد وضحت وضوحاً كافياً بعد . وإنه لمن المستحيل أن نقضي في « المبادىء الشاملة » التي قالوا بها كلها الجواب الذي قال به ديوجنس « مبدأ الهواء الذي قال به هيرقليطس أهي الى الروحانية أقرب الى المادية ، على نفس الصورة التي تحددت بها تلك المبادىء فيما تلى ذلك من العصور . وكذلك تصور النفس لم يخبر في عقلية الفلاسفة الروحانيين ، ثم يتضح أي وجه من التفرقة بين الناحيتين الطبيعية أو المادية ، والروحية أو العقلية ، على الصورة التي فرّق بها بين الناحيتين في العصور التالية . فقد خيل اليهم أن في النفس الذرات من طبيعة « الديمون » Daemon الذي اعتقد به الاغريق . ومنه استمدّ تصور الخير ، وهذا

يعود الى فكرة « الروح الشبح » التي قالت به الروحانية البدائية ، فقضم وعظم عندما تكيف ، فأصبح من طبيعة الآلهة ، ولكنه ظل غير محرر عن المادية تحريراً تاماً .

أما أن التفرقة لم تكن تامة واضحة عند الفيثاغوريين ، فظاهر من انهم عندما رأوا الهباء الذي يتراءى في أشعة الشمس وكأنما يتحرك حركة ذاتية ، حدسوا انه أرواح طليقة تجد باحثة عن أجساد تستقر فيها للتردد الى الحياة الأرضية . أما عهد أمبيذقليس عند إيجاد التفرقة بين الروحاني والمادي ، فواضح من أنه جعل لتجسم كل المحسات العقلية ، عاملا تلك المحسات العلوية التي هي مخلوقة بالروح دون الجسد ، وعنى بها في الأكثر حالات الكشف والبداهة الفلسفية .

أما ديمقريطس فقد استطاع أن يشعر الفرق بين عالم المادة وعالم الروح ، عندما قال بتعدد بفكرة أن الكون مؤلف من جواهر فردة هي عبارة عن مادة دائمة الحركة . وبذلك مهد السبيل لوضع تفرقة أكمل بياناً بين المادة والروح ، تلك التفرقة التي كان من نصيب أفلاطون ان يثبتها ويجعلها جزءاً من الميراث الخالد الذي ورثته أوربا عن الأغريق ، وفي سبيل تفسيره بذل الفلاسفة المحدثون كثيراً من جهودهم الفكرية .

* * *

ولا شك في أن الجهد الفكري الذي بذله الاغريق في سبيل تحرير الفكرة القديمة في الروح والنفس ونعني بها فكرة البدائيين في الروح الشبح ، هو في الآثار الخالدة في تاريخ البشر . ولكن لا ينبغي لنا أن ننسى أن الحضارة المصرية قد قام جانب كبير من فلسفتها وتأملاتها على فكرة الخلود ، وما الخلود عندهم إلا خلود الروح والجسد معاً ، فقد عنوا بالجسد لأنه المحل الذي يحل فيه الروح عند البعث ، ولعلهم حدسوا أن الروح بعد أن تفارق البدن لا تزال ذات اتصال بالارضيات ، وإنها تأنس من الحلول في مادة غير المادة التي حلت فيها من قبل . وقد نعود الى هذا البحث بعد أن نفرغ من تفصيل الفكرة الفلسفية في الروح أو نسوق الكلام في ذلك استطراداً في اثناء الكلام .

اسماعيل مظهر